إشكاليّة

حين خرجت من بطن أمها لم تكن تعرف غير ثديها سقاءً، ولا تنعم بغير حضنها دثاراً، حتى إذا شبت الطفلة (س) واستقام عودها، وتبلورت رؤاها، ما عادت هي الأم التي تتمناها، وما عاد شبحها يملأ الصورة عنها في مخيلتها، تولّد شرخ ما بين التمثال والحقيقة، كان عليها أن تستجلب نفسها كل لحظة من قصور الحلم لترطمها بعتبات الأسى المرّ، كل لحظة تهرب.. وكل لحظة تستجلبها.

فتحت (س) عينيها على رفيقة درب، ومؤنسة قلب وفكر، باتت صنوها الذي لا يغيب عن خاطرها، جسّدت بها حقيقة الخلّ الوفيّ، حتى إذا مرت السنون وتبدّلت الظروف.. بدأت تتراءى لها صور جديدة لم تكن تراها في صديقتها طوال السنوات الماضية، يومها فهمت درس العلوم الطبيعية الذي كان يتحدث عن مسافة المدى التي بأقرب منها وأبعد لا يبصر الإنسان بوضوح، جرّبت (س) أن تضع صديقتها على تمثال

الخلّ الوفي، لكنه لم يناسب مقاسها، وتمرّدت الصديقة من قولبتها، وعادت (س) تكرر مأساة الشرخ.

كان لمدرّستها كبير الأثر في توجيهها وتربية سلوكها، سطّرت من كلماتها صفحات حياتها سهّلت عليها تجاوز كثير من الأزمات بإرشاداتها، امتناناً منها نصبت لها تمثالاً من الزجاج البرّاق، وأحاطته بكل الحب، لكن تغيّرات الطقس لا تترك أحداً من تأثيراتها، بدأ التمثال يخبو، وبدأت العين تألفه، انسحبت المدرّسة تدريجياً من تمثالها لتعيش إنسانيتها، ما أدركت (س) أن مدرّستها كانت ربّان سفينتها لمحطة من المحطات.. عادت إلى مأساة الشرخ.

حينما تزوّجت لم تكن ترى في العالم خيراً منه، فهو الملاك الذي هبط من السماء خصيصاً لها، بكل هدوئه.. وحِلمه.. وعفافه.. وحبه.. كله لها، رجال العالم في كفّة، وزوجها هي في كفّة أخرى، هكذا أرادت أن تحبه.. وهكذا فعلت..

عندما بدأت الحياة تتطلب، والحال يضيق، باتت ترى عجزه، هي لم تنسَ حلمه وهدوءه وعفافه، لكن.. لعلها تراهم بصيغة أخرى.. سلبيته وعدم حوله وقلّة حيلته..

- انظر إلى فلان، يعمل بالليل والنهار حتى صار عنده بيت وسيارة.

- يا امرأة.. وضعه غير وضعي.

- وفلان.. صديقك، شهادته كشهادتك، أخذ زوجته في عيد زواجهما إلى إسبانيا.

- أنت تعلمين أنه عندما تزوج لم يُدخل إلى بيته إبرة، وكل هذا النعيم هو من عند أهله، يا بنة الحلال، كفي عن المقارنة..!

هي تعلم أن الخطأ فيها وليس في الآخرين والشرخ عندها وليس عندهم، ولكن.. لماذا هي بالذات..؟.. (س) لا تستطيع استبدال البيت الذي تخفق الأرواح فيه بالقصر المنيف، لا تستطيع أن ترى في السقف الذي ينقط مطراً جمالاً يفوق جمال الفسيفساء، لماذا يجب عليها أن تحب ذاك الراعي الفقير لتكون إنسانة ذات قيم، وهي نفسها يمكن أن تحب بصدق ذاك الأمير النبيل..! أبحبها العليائي تكون قد قضت على إنسانيتها واندفعت إلى شهواتها المادية سواء أكان ذلك أم لم يكن..؟!

صحيح أن أحلاماً كثيرة سرقت منها مشاعرها، وأن وهج طموحها بخّر ينابيع عاطفتها، لكن لماذا خلقنا لها هذه المشاعر بعيداً عن الأحلام..؟

لماذا جعلناها ترى ما لم تكن تراه قبلاً..؟

لماذا لا تبقى بذات الصورة..؟ أتتبدّل الرؤى مع الزمن..؟ أم تتوضّح..؟

لماذا تكتشف (س) بعد ردح من الزمن وهمها ؟ وأن كل ما عاشته قبل هذه اللحظة هو حقيقة مزيّفة..؟

وأن كل لحظة تعيشها سيأتي يوم وتكون وهماً، لتكتشف بعده حقيقة جديدة..!

هل تُلام (س) إن فقدت الثقة يوماً بكل أحد..؟ وبكل شيء..؟ كل امرئ يشعر بنفسه محقاً وله الأحقيّة في تقييم كل الأشخاص وكل الأزمنة وكل الحيثيات، ما فكر أحد بنفسه : هل أنا محق..؟ هل أنا على صواب..؟

قديماً قالوا: (أعطى الله كل شيء لابن آدم ولم يرضَ به.. إلا عقله.. رضي به..!!).

هي تعلم أن في مخيّلتها تلك المدينة الفاضلة التي شرخت لها الواقع، ولكن.. من حشاها في مخيلتها..؟

لمَ ربّوها على القيم والرموز..؟ ولم تنزل إلى الميدان فتجدها حبراً على ورق..؟ علّموا (س) الكثير من القيم، لكنهم نسوا ملحوظة صغيرة "نسوا أن يحذّروها بأنها لن تلقى تلك القيم في الحياة تترامى على الطرقات، بل إن قيمتها ما ظهرت إلا بندرتها وندرة من يحملها، وهكذا حاول أيها الطفل المعجزة أن تكون ممن يقتنص تلك القيم من أكوام الكذب والغش

والخداع"، ليتها ما مرت بكل تلك التجارب حتى اكتشفت الحقيقة.. فقد دفعت ثمن هذه الحقيقة باهظاً.

صحيح أن (س) ليست كرّاساً يجمع كل القيم، لكنها أيضاً ليست مشجباً يعلق عليه الآخرون سقطاتهم ويمضون في سبيلهم، وقد تركوها تلمّ إشارات التعجّب والاستفهام، وتبحث من بينها عن قيمة تضمّها إليها خشية الانقراض.

من يضمن لها أن قيمها قد لا يغيّرها الزمن..؟ من يضمن لها أنها إن اعتلت مركباً غير مركبها قد لا تغيّر وجهتها، ولا تغيّر وسادتها؟ هي نفسها.. لا تضمن نفسها، ولا تثق بقيمها، لأن كل شيء متحول، ولأن هذه القيم قد جُسّدت أمامها بصورة يريدها التاريخ، يريدها العرف، يريدها المجتمع، يريدها الأهل، ركّزوا على أشياء وأهملوا أخرى، علّموها أن الإنسان بفعله لا بحسبه ونسبه، علّموها أن الإنسان بطهارة قلبه لا بجميل ثيابه، لكنهم نسوا أو (تناسوا) ربط تلك القيمة بالقيم الأخرى، هل هناك من ينكر أن شرف النسب جواز عبور لكثير من مسالك الحياة..؟! هل هناك من ينكر أن حسن المظهر له الانطباع الأول على العين والنفس..؟

ومن ثم أيكون شرف النسب وحسن المظهر قيمة أم ليسا بقيمة..؟!

لعلّهم أرادوا بحسن نية أن يفهموها ضرورة الاعتناء بالفعل والعمل، وضرورة الاهتمام بصفاء القلب، لكنهم بمفهوم المخالفة أوصلوا إليها مفهوم عدم ضرورة الأمور الأخرى، وكبرت (س) وهي تترنّح بتلك القيم المبتورة، حتى إذا خالطت من يماثلها في حسن الفعل من ذوي الحسب وجدتهم قد زادوا جمالهم جمالاً.

نعم (س) تريد كل شيء، ولا ترضى بالدونية، لمَ غيرها قادر أن يجمع بين دينه ودنياه..؟

بين قيمه وسعادته..؟ ولمَ (س) بالذات هي التي عليها أن تأخذ من القيم ما يجعلها تعاني، بل لأنها بها تعاني باتت قيماً...!! وكأن هناك ممن ظهر للتاريخ من لم يستطع الوصول إلى العنب فراح يدعي حموضته، وصاح وراءه كل صيّاح ليملؤوا الفراغ والتاريخ، وهناك من هو مشغول بالجمع بين القيم والسعادة ما عنده وقت للصياح..!!

لابد لنا من تصحيح حقيقي لمفهوم القيم تحت شعار وحيد هو (إرضاء الله وسعادة الإنسانية) كفانا متاجرة بتماثيل عارية، نضعها على رأس الجبل، ليراها الجميع بكل عريها، ومن ثمَّ.. نريد إقناع الجميع أنها ليست عارية..!!